المناهج الحديثة في دراسة الرواية (السوسيونقدي)

جبور ام الخير

يقترب الدارس من النص الروائي بأدوات و تقنيات عديدة تتنوع بتنوع المنهج الفكري و الأدبي الذي ينتقى ، فيقارب هذا الباحث النص أو كاتب النص أو القارئ مقاربة تطبيقية و نقدية ، ولهذا السبب فإن ولوج عالم الرواية ليس بالأمر اليسير ، لأن البداية تتحقق بالقراءة المعلقة التي تقف على التفاصيل و الجزئيات و تسعى إلى الوصول نحو المقصدية ، فثمة قراءة للنص الروائي أو قراءة لحياة الكاتب مع تضمين الرسائل و المذكرات و التصريحات الصحفية التي تنسب لتاريخ هذا المبدع، و ضمن هذه العملية لا يمكن إغفال عملية تعدد القراءات. و انطلاقا من ذلك يشرع هذا الدارس أو الباحث في تتبع منهجا من المناهج الحديثة بالقراءة و الفهم(السيميائية أو السوسيونقدية أو نظرية التلقي) كما يسعى إلى توظيف مفاهيمها وطروحتها بحثا عن دراسة داخلية وخارجية. و في هذا المقال نستعرض بإيجاز أبرز المفاهيم الأساسية للاتجاه السوسيونقدي.

أولا انحصرت مجالات الكتابة السوسيونقدية في المقالات المنشورة على صفحات المجلات والملتقيات الجامعية بالدرجة الأولى ، و قد تنوعت المقالات بين الآراء النظرية، والتحليلات الأدبية. فتيار السوسيونقدية لا يفصل بين النص والمجتمع بل يساند الفرضية التي تذهب إلى وجود المجتمع داخل النص و أن المركز البنائي لكل نص مكتوب هو المجتمع . و من هنا جاء اقتراحها بأن يُدرس المجتمع من خلال النص المكتوب أو المرئي . فمثلا حينما نقرأ الأعمال الروائية لمحمد ديب أو لمولود معمري نعثر ضمن صفحاتها على بصمات لطبيعة المجتمع الجزائري بكل مميزاته وخصوصياته حينذاك و لا نعثر على معلومات تخص التونسي أو الفرنسي أو الإيطالي أو السويدي .

فبالنسبة لعلم اجتماع الأدب لم يتوصل أهل الاختصاص بينهم إلى أسس وأساليب هذا التوجه ، وأوضح شاهد على ذلك التسمية المتنوعة التي لم يبث فيها إلى يومنا هذا ، إذ يفضل بعضهم "اجتماعية الأدب " أو "اجتماعية الظواهر الأدبية " و بعضهم الآخر "اجتماعية النص{الأدبي} ، أو تسمية السوسيونقدية . و هنا يحق لنا أن نتساءل ، هل تعدد المصطلحات يعكس حالة تشتت اتجاهات هذا المنهج التي تصب في مجرى واحد أم هي حالة طبيعية لا عيب في وجودها؟

من الواضح أن المنهج الاجتماعي يتأسس على المرجعية السوسيولوجية ، وعلى الالتفات إلى الواقع المادي و المعيش اليومي . فإن كل من " جورج لوكاش " Georges Luckacs و " لوسيان قولدمان "Lucien Goldmann يمثلان السوسيولوجيا التقليدية {المضمونية} التي تلغي الوسائط اللغوية اللسانية والنصية.

وفقا لهذا المنهج يستند الناقد إلى تتبع الأثر الفني أو الأدبي قراءة و تحليلا باتجاه المجتمع و ذلك وصولا إلى تبيان الأسباب الاجتماعية التي تقف وراء إنتاج هذا الأثر . فمثلا توصف المرأة دائما في روايات "مولود فرعون" كنموذج للمرأة الجزائرية المجدة العاملة و المحبة للحركة والمنتجة داخل و خارج البيت، فنلتقي بها فلاحة وصانعة للفخار وجانية للزيتون ، فهي لا تتهاون في مشاركة الرجل في كل الأعمال الزراعية البسيطة.

كما نكتشف بقراءة الثلاثية بعض العادات اللباسية المتعلقة بالنساء القرويات ، ففي رواية الحريق كانت النسوة يضعن على رؤوسهن المناديل ، فليس ثمة من تكشف شعرها خشية الالتقاء بالرجال سواء الأقارب أو الغرباء ، فهؤلاء النسوة لا يعشن وحيدات بل تتطلب منهن أشغال البيت أن يتجولن هنا وهناك . كما أن هموم الحياة الكثيرة وانشغالاتهن المتعلقة بجلب الماء و تنظيف البيت وإعداد الطعام لا تعطي لهن الفرصة للاعتناء بتزيين الشعر ، فأفضل وسيلة للتخلص منه هي تغطيته بمنديل عادي في الأيام

العادية و مزين بالألوان الزاهية و المزركشة في الأيام الخاصة كالأعياد . ترصَّد محمد ديب بعض السلوكيات الطريفة والغريبة فهؤلاء النسوة كن يرفعن أيديهن إلى أفواههن بين فترة و أخرى حينما يرغبن في التعبير عن الدهشة أو التركيز لحظة الاستماع أو المشاهدة لأمر مفزع أو محزن. والمدهش أن هذه العادة أي وضع السبابة على الشفتين أثناء الاستماع موظفة وممارسة عند النساء القبائليات كذلك . يقول مولود معمري:

"كن يضعن سبابتهن على شفتين مغلقتين و ينظرن خطاب زوجة "أكلي ".

أما فيما يتعلق بالعادات المرتبطة بالموت فقد وصف الكاتب محمد ديب جنازة "زبيش" كنموذج للجنازات في الوسط التلمساني ، فعادة تجلس النسوة في فضاء واسع كساحة كبيرة مثلا . وتتوسط صاحبة الجنازة المكان ، فعائشة والدة الطفل "زبيش" لم تكتف بالجلوس وسط النسوة بل بدأت تضرب صدرها ويديها و حتى وجهها ، باكية منتحبة . و قد تَركت آثارَ خدوش على وجهها. أما عيونها فلم تكن تشبه العيون العادية بل كانت أقرب إلى عيون حيوان فقد عقله . وعلى حافة شفتيها التصقت رغوة بيضاء أو زبد ثلجي . اندهش عمر بطل الثلاثية أمام هذه اللوحة الحزينة ، فوقف حائرا من هذه النسوة اللاتي شاركن صاحبة البيت النحيب دون سبب يذكر .

و المعروف كما ورد في روايات مولود فورعون عن الفئة المسيحية في بلاد القبائل أنها تعرف باسمين ، فبعد تعميدهم من طرف الكنيسة المسيحية ، يسمى هؤلاء باسم مسيحي وزعه عليهم الآباء البيض مثل "ماري" و "جان" و خاصة" أوغستين" و "مونيك" لكن الأسماء المحلية تبقى مقترنة بالأسماء الأولى كمحمد و آكلي و رابح و سعيد. و يترك للأهل والأقارب و أصحاب الشأن الخيار بين هذا أو ذاك .

كما تكشف لنا هذه الأعمال الروائية طريقة غريبة يتم بها اختيار الأسماء في القرى القبائلية ، فحينما ترزق عائلة بمولود جديد ، لا

يتعب الوالدان نفسيهما بالبحث عن اسم جميل يتباهى به الطفل بين أقرانه ، و إنما المسألة في منتهى السهولة ، إذ يختار لهذا المولود الجديد اسما لأحد أفراد الأسرة المتوفين قريبا ، كالجد مثلا أو أحد الأعمام أو العمات أو أحد إخوته الذين ماتوا . فهذا الاختيار واستمرار الاسم هو نوع من الاستمرارية لمن نحب . و هذه العادة لا تقتصر على منطقة القبائل بل هي منتشرة في كل قرية أو مدينة من قرى الجزائر أو مدنها ، بل أعتقد أنها من التقاليد العربية و الإسلامية . و قد طبقها مولود فرعون في روايتيه "الأرض و الدم" و "الدروب الوعرة" فعامر كاسم للابن هو استمرارية لعامر الأب.

..."و بما أن أبي كان قد توفي حينما ولدت ، فقد أعطيت اسمه لأكون خلفه في هذه الحياة ".

و بصورة عامة ، تتميز الدراسات السوسيونقدية عن علم الاجتماع الأدب التقليدي بداية من الموضوع ، ليس فقط لكونها تقتصر في ترصدها النص الأدبي و إنما ، كما يذكر " كلود دوشي Claude Duchet " لأن مجال اهتمامها ، بخلاف النوع الثاني يكمن داخل النص ، و نقصد بذلك التنظيم الداخلي للنص و آلية العمل فيه و كذا ينابيع الدلالات العديدة الموجودة فيه التي تتلاقى و تتصادم بين الحين والآخر . و من ناحية ثانية تطرح السوسيو نقدية قضية الوسائط والآلية المنتجة للدلالات السيميائية والأيديولوجية . و لعل تلك الدلالات تطفو على الساحة الفنية و الجمالية من قاعدة التضارب المتناقض الذي يتماهى بعيدا عن العرض الانسجامي للمضمون . فالنص حسب "إدمون كروس" فضاء من التناقضات ، أين تنكشف الممارسات الاجتماعية . وكل صورة أدبية تَستحضر الصورة المضادة لها باستمرارية متناهية.

إن ممارسة القراءة السوسيونقدية أو النقد الأدبي الاجتماعي على الأعمال الروائية أو القصصية تشكل فتحا للنص من الداخل ، لإنتاج أو إظهار مجال من الحقائق الكامنة ، فهناك دائما مساءلة

ضمن هذا المنهج لانتزاع المسكوت عنه ولصياغة فرضيات اللاوعي الاجتماعي من النص المكتوب أو الخطاب المدون .
تحاول السوسيونقدية دراسة البنية المؤسسة للمجتمع و ليس البنية الاجتماعية، فهذا النقد يرغب في فك رموز بعض المظاهر و استخراج الصراعات الأيديولوجية لمختلف الطبقات و في مختلف المراحل . فالعلاقة بين الأيديولوجية والخطاب الفني تدرج في إطار إشكالية عميقة جدا و متشعبة ، علاقة تقوم بين المجال الأدبي من ناحية والمجال الاجتماعي من ناحية أخرى . إن دراسة هذه العلاقة تأخذ في الحسبان الثنائية المعروفة { الشكل والمضمون{
يعتبر " كلود دوشي " من الممارسين الأوائل للنقد الأدبي الاجتماعي في فرنسا. فقد بحث في الأساليب النصية المتبعة لتوليد المفاهيم الأيديولوجية ، هذه الأسس التي تُفعّل من الخارج للتأثير . فالواقع الاجتماعي نجده حاضرا في النص الأدبي لا من خلال معلومة محددة أو رسالة مبثوثة هنا وهناك أو من خلال رؤية للواقع العام بل هذا التواجد يتحقق من خلال التداخل بين النص المكتوب والشروط الاجتماعية للكتابة و بين المطالب المستقبلية للقراءة.
يُقسّم النص في السوسيونقدية إلى درجات ثلاث

1. "مع النص" و هي مجموعة الخطابات التي تلازمه.
2. "خارج النص"هو مجال الإحالة السوسيوثقافية التي يتحقق بواسطتها التواصل بين النص والقارئ.
3. "النص"و يقصد به السلسلة اللغوية التي تنعت بها.

تبقى مجالات السوسيونقدية محاورة المضامين الخفية ، المقاصد و الصمت ، الغالب لصياغة فرضيات و احتمالات لمنطقة اللاوعي الاجتماعي ضمن قالب إشكالي مؤسس على الخيال . لا يهمل هذا الاتجاه المشاركات السوسيولوجيا الأخرى الملازمة كسوسيولوجيا الكِتاب والسوسيولوجيا الثقافية و كذا سوسيولوجيا المعرفة و سوسيولوجيا القراءة و التلقي وسوسيولوجيا الوسائط التي تحدد المواد المشكلة لها بتحليل أجهزة الشرعية و طرقها .

ينبغي حينما تمنح للناقد السوسيونقدي فرصة تناول نص إبداعي أن يستفيد من مختلف النظريات ، وأن يفتح أفق تفعيل نصوصه على الأساليب التحليلية كنظرية الأدب و الأدب المقارن و التاريخ الأدبي . فانطلاقا من هذه المعارف النظرية يتم تهيئة الأرضية المناسبة للدراسات الأدبية كما يتم انتقاء الأدوات الفكرية و التقنية المناسبة للمنهجية وللموضوع المدروس ، مع التوجيه الصحيح للتضمينات المعرفية و الأيديولوجيا المنتقاة . و قد استفادت السوسيونقدية من النظريات الحديثة لألتوسير ، لكان و ميشال فوكو كما استفادت من بعض المصطلحات التي ذكرتها " جوليا كريستيفا" بإعطائها شروحات أخرى « génotexte et phénotexte » و كانت دوما تُذكر بجذورها الأولى ممثلة في جورج لوكاش، ميخائيل باختين ولوسيان غولدمان .

الهوامش

(1) Paul Dirkx, Sociologie de la littérature, Armand colin, 2000, p6.

(1) محمد ديب، الثلاثية، تر سامي الدروبي، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت الطبعة الأولى 1968، ص280.

(1) Mouloud Mammeri, La colline oublié éd Gallimard 1992, p36.

(1) Mohammed Dib, Le métier à tisser, éd du Seuil 1957, pp115-116.

(1) نفسه، ص131.

(1) Edmond Cros, la sociocritique, L'Harmattan 2003 , p 37.